

وطن واحد وشعب واحد

د. محمد عبد العزيز ربيع

جاءت ثورة الحرية التي انطلقت في تونس لتعلن بداية عصر النهضة العربية، تلك النهضة التي تأخرت أكثر من ستة قرون. إذ جاء خروج العرب من الأندلس في نهاية القرن الخامس عشر ليعلن خروجهم من التاريخ الحضاري الذي قاموا بقيادته لأكثر من ستة قرون متتالية. وحيث أن الحرية وردة ذات رائحة عطرة تعشق الريح، فإن رياح التغيير حملت ثورة الحرية إلى قلب الوطن العربي في مصر، ومن هناك تسللت عبر الحدود وأسوار الكبت إلى عدة أقطار عربية.. إلى ليبيا واليمن والبحرين وعمان والمغرب والأردن وسورية والعراق وغيرها. لكن أنظمة الحكم العربية التي استمرت احتكار السلطة والتسلط على شعوبها رأت في تلك الثورة بداية النهاية بالنسبة لما تجسده على أرض الواقع من ظلم وكبت وفساد، وذلك لأن صحوة الشعوب تأتي لتهدم وتبني في آن واحد.. تهدم صروح الظلم والتسلط والفساد، وتعيد تشكيل الواقع وظروف الحياة وثقافة المجتمع ومواقف الإنسان من الذات والغير والأرض والبيئة.

نتيجة لذلك جاء رد فعل كل أنظمة الحكم العربية التي طالتها الثورة حتى اليوم سلبيا عكس إصرارها على الحيلولة دون نجاح الشعوب المسالمة في استرداد حقوقها التي تمت مصادرتها على مدى عقود ظلام استمرت أكثر من خمسة قرون متتالية. أما الأنظمة التي أخذت تُلوح بالتغيير وتبدي استعدادا لإصلاح حالها وكبت جموح مؤسسات القمع والفساد التي نشأت وترعرعت في ظلها، فلا تزال مترددة تخاف التغيير ولا تقوى على الوقوف في مكانها الذي لم يُعد آمنا. لذلك نلاحظ اتجاه العقلاء من الحكام إلى التجاوب الخجول مع مطالب شعوبهم والاعتراف باستحقاقات العصر، واتجاه البعض الآخر إلى تجميع قواهم والإمعان في سياسات القهر والاستبداد لحماية قصورهم ومواقعهم، واتجاه آخرين إلى التمسك بالسلطة وإحياء سياسة "فرق تسد" لتأليب فئات الشعب على بعضها البعض وإغلاق الطريق أمام حركة الإصلاح. إن محاولات تجزئة أبناء الشعب الواحد إلى فئات متناحرة باستخدام عصا التهيب وجزرة الترغيب، وتحويل المواطن إلى أداة قمع ضد أخيه وجاره وصديقه هي عمليات إجرامية تتنافى مع القيم الإنسانية وأدنى متطلبات الوحدة الوطنية. إن ما لدى الحكام من مال ومغريات يجعل بإمكانهم شراء ذم البعض، واستهواء البعض الآخر للانضمام لزمر المُفسدين، وتهيب آخرين من الفوضى والعنف. وهذا من شأنه تجزئة المجتمع إلى فئات متنافرة أو متناحرة، وقتل روح المواطنة، والحيلولة دون حدوث نهضة. لكن ما لا يعلمه ضحايا عمليات شراء الضمائر والذمم أن أنظمة تستخدمهم أدوات قمع لا يمكن أن

تحتزمهم أو تثق بهم، بل ستعاملهم حين تحس بالأمان كأشياء رخيصة تباع وتشتري في سوق النخالة بأبخس الأثمان.. أشياء صالحة للاستعمال اليوم، ونفايات تفوح برائحة العفن غدا.. تماما كما تُعامل القوى الأجنبية عملائها من عرب وغير عرب. لكن أنظمة الاستبداد مهما فعلت لن تستطيع أن تصمد طويلا أمام زحف شعوب تتوق لاسترداد حريتها وحقوقها المشروعة، حتى وإن كانت ضعيفة ومسلوبة الإرادة، وذلك لأنه ليس لدى الشعوب المقهورة شيئا تخسره سوى ما تعانه من فقر وبؤس واضطهاد.

إن لدى كل دولة في وطننا العربي الكبير أقلية أو أكثر ذات طابع عرقي أو طائفي أو ثقافي أو ديني من حقها الحصول على حقوق متساوية مع الغير، فكل أقلية وكل أكثرية هي جزء لا يتجزأ من وطن ساهمت بعقولها وسواعدها وتضحياتها في بنائه وتشكيله. إن التطورات المجتمعية والهجرات السكانية والغزوات الاستعمارية التي تواصلت عبر التاريخ هي المسؤولة عن هذه التركيبات الاجتماعية. فعلى سبيل المثال، حين قامت إتفاقية سايكس بيكو بتجزئة الوطن العربي إلى مناطق نفوذ بين بريطانيا وفرنسا، أصبحت العراق والأردن وفلسطين خاضعة للاستعمار البريطاني، بينما أصبحت سورية ولبنان والمغرب العربي خاضعة للاستعمار الفرنسي. وفي مقابل السماح لفرنسا بالتصرف بالمغرب على هواها، حصلت بريطانيا على مدينة الموصل التي تم اقتطاعها من سورية وضمها للعراق، وذلك لأن بريطانيا كانت تعلم بوجود بترول في منطقة الموصل. وهذا يدل على أن الاستعمار تعامل مع الوطن العربي بصفته وطنا واحدا لأمة واحدة، وأنه وجد أن مصلحته تحتم عليه القيام بتجزئة ذلك الوطن وشعبه لاحكام السيطرة عليهم واستغلال مواردهم وتكريس تخلفهم. وهذا يعني أن من يدافع عن "السيادة الوطنية" لأي قطر عربي في مواجهة قطر عربي آخر، ويقف ضد أقلية في وطنه يختلف معها ثقافيا أو دينيا هو إنسان يجهل تاريخ الاستعمار لوطنه ولا يدرك منطق التاريخ، وأنه يقول عمليا بأنه على استعداد لأن يموت في سبيل الحفاظ على مصالح الاستعمار، ومساعدته على تحقيق أهدافه المعادية لطموحات الشعوب العربية، وتكريس تجزئة الوطن والأمة كما أرادت القوى الاستعمارية القديمة وتسعى القوى الاستعمارية الجديدة.

من ناحية أخرى، إن الدفاع عن القبلية والعشائرية يُشكل دفاعا عن عادات وتقاليد وأعراف عفى عليها الزمن منذ آلاف السنين. لقد سادت القبلية كمجتمع وثقافة حياة الشعوب التي سكنت الكرة الأرضية قبل عشرة آلاف سنة، أي قبل بزوع عصر الزراعة. ولقد جاء التطور المجتمعي ليجعل ذلك النموذج الحياتي متخلفا اجتماعيا وثقافيا وسياسيا واقتصاديا وعلميا عن كل المجتمعات التي جاءت من بعده. وهذا يجعل الاعتزاز بالثقافة القبلية، وتغيير المواقف والولاءات بناء على انتماءات عشائرية هو اعتزاز بتقاليد وأعراف وسلوكيات متخلفة عن العصر قيما وروحا وواقعا حياتيا. وفي الحقيقة، تُشكل الارتباطات

العشائرية والطائفية في أجهزة الدولة وجها للفساد الذي يعم الوطن العربي بأكمله ويقوم على المحسوبية والواسطة كوسيلة للحصول على مكاسب على حساب الغير والوطن، ويعكس موقفا يتنافى مع حقوق الإنسان والمواطنة والمساواة والعدالة.

لذلك، أدعو كافة شباب الوطن العربي من محيطه إلى خليجه، من موريتانيا إلى عُمان، إلى رفع شعار "وطن واحد وشعب واحد" والترويج لهذا الموقف بكل الوسائل المتاحة، وغرسه في النفوس كي يقطع الطريق أمام محاولات فرض سياسة "فرق تسد" الاستعمارية التي ورثها حكامنا عن سادة العنصرية الغربية المقيتة. وضمن هذه الدعوة أتوجه بالشكر والتقدير لشباب لبنان والعراق الذين تظاهروا مطالبين باسقاط النظام الطائفي. فهل هناك عاقل واحد في الوطن العربي يعتقد بأن النظام الطائفي خدم قضية شعب أو وطن؟ وهل استطاعت دولة واحدة ذات نظام طائفي أو عشائري أن تحقق تقدما علميا أو اقتصاديا أو حتى استقرارا سياسيا؟ وهل استطاع فقراء لبنان أو العراق المنتمين لكل الطوائف الحصول على حقوقهم واستعادة حريتهم وكراماتهم؟ وإذا كانت الإجابات على هذه التساؤلات هي بالنفي، فلماذا يتصور طائفي أو عشائري في الأردن أو ليبيا أو مصر أو اليمن أو البحرين أو المغرب أو غيرها أن بإمكان الطائفية أو العشائرية أن تنفذ فقيرا أو تحرر مظلوما أو تخدم قضية إنسانية أو تحقق تقدما. إن الطائفية والعشائرية نعرات اجتماعية تجاوزها الزمن، تنبع من عقلية جاهلة تعيش في الماضي السحيق، ولا تخدم سوى تكريس ما هو قائم من تخلف واستبداد وظلم وتفرقة وتبعية.

"وطن واحد وشعب واحد".

www.yazour.com

د. محمد عبد العزيز ربيع